رأي القدس

الاردن واعترافات خلية «حماس»

■ تابع ابناء الشعب الاردني باهتمام شديد انباء الاعتقالات التي استهدفت عشرين شخصاً، قالت الحكومة انهم شكلوا خلية خططت لتخزين اسلحة واغتيال بعض القيادات الأمنية في البلاد، مثلما تابعوا باهتمام أكبر الاعترافات التي أدلى بها اثنان من هؤلاء، وبثها التلفزيون الاردني مساء امس.

حركة المقاومة الاسلامية «حماس» نفت هذه الانباء جملة وتفصيلاً، وقالت انها «سخيفة»، علاوة على كونها مفبركة، وانعكس هذا الموقف بجلاء من خلال رفض حكومة الحركة ارسال مندوب عنها الى الاردن كجزء من وفد فلسطيني برئاسة رئيس جهاز المخابرات للاطلاع على ملف التحقيقات حول هذه المسألة.

الاعترافات التي يدلي بها المتهمون في معظم الدول العربية عبر شاشات التلفزة غالباً ما تكون ضعيفة المصداقية، وجرى انتزاعها من خلال اجراءات تحقيق قاسية تستخدم فيها انواع عدة من التعذيب الجسماني والنفسي. ولهذا أكد محامون مستقلون ومنظمات حقوق الانسان ان هذه الاعترافات تنتزع بالاكراه.

الحكومة الاردنية تملك سجلاً حافلاً في هذا الاطار، فطالما اعلنت عن اعتقال خلايا قالت انها خططت لأعمال تخريب واغتيالات، لتعود بعد ذلك وتفرج عنها في مرحلة لاحقة دون توجيه تهم. وقد اعلنت في كانون الاول (ديسمبر) عام 2001 عن اعتقال خلية تابعة لتنظيم «القاعدة» وأثار نبأ الاعتقال ضجة عالمية في حينه، خاصة انه تزامن مع اعتقال زكريا الموسوي الفرنسي المغربي الاصل اثناء اجتيازه الحدود الكندية ـ الامريكية لتنفيذ هجمات داخل الولايات المتحدة، ثم بعد عام من التحقيقات والمحاكمات تمت تبرئة معظم المعتقلين من التهم، الموجهة اليهم وخاصة تهمة الانتماء الى تنظيم «القاعدة».

نحن لا نقول بأن الخلية التابعة لحركة «حماس» المعتقلة حالياً في الاردن بريئة، ولكننا في الوقت نفسه لا يمكن ان نجزم بأنها مدانة ايضاً. وما يحسم هذه المسألة وجود قضاء عادل مستقل، ومحاكمات نزيهة في حضور مراقبين دوليين.

من المؤسف ان القضاء المستقل من الاشياء النادرة في معظم انحاء الوطن العربي، وغالباً ما تتحكم الاعتبارات السياسية في احكامه النهائية، وحتى ان وجد هذا القضاء المستقل، فان المتهمين في القضايا المتعلقة بأمن الدولة العليا لا يعرضون عليه للنظر في قضاياهم، وانما يحولون الى المحاكم العسكرية بمقتضى قوانين الطوارئ والاحكام العرفية.

الاردن مستهدف، هذه حقيقة لا تحتاج الى الكثير من العناء لاثباتها، فقد تعرضت ثلاثة فنادق في عاصمته لتفجيرات أدت الى مقتل ستين شخصاً، كما تعرض ميناء العقبة لهجوم استهدف بارجة امريكية.

ولا نعتقد ان حركة «حماس» التي حظيت دائماً بدعم الاردن ورعايته، على المستويات كافة، ابتداء من الديوان الملكي وانتهاء بالحركة الاسلامية، يمكن ان تقدم على عمل كهذا، خاصة في مثل هذا التوقيت الذي تواجه فيه حصاراً عربياً ودولياً، يعمل على افشال حكومتها.

فحركة «حماس» تبحث حالياً عن اصدقاء، وتبذل جهوداً كبيرة لتحييد الاعداء. ومن غير المنطقي ان تكون الحركة التي التزمت بهدنة امتدت لعام مع الدولة العبرية، وعرضت تمديدها تريد «فتح» جبهة مع الاردن.

هناك حلقة غامضة في مسلسل العلاقة الاردنية «الحمساوية»، ما زال من الصعب التعرف عليها وفك طلاسمها، ولعل اكثر الامور غرابة الاعلان عن اكتشاف مخازن للأسلحة في الاردن تابعة للحركة مع الموعد المفترض لوصول محمود الزهار وزير خارجية فلسطين الى العاصمة الاردنية.

الشيء الوحيد الواضح هو ان الحكومة الاردنية، وربما بضغط امريكي، لا تريد الاعتراف بحركة «حماس» والتعامل مع حكومتها، واستقبال المسؤولين فيها، وهذا أمر سيادي لا جدال فيه، ولكنه موقف ربما تكون له انعكاساته السلبية على الاردن وأمنه الوطني، وصورته العربية، ونسيجه الداخلي، خاصة ان الجماعات الاسلامية الاردنية تتعاطف مع حركة «حماس» وتشكك في الرواية الرسمية حول تورطها في خطة اغتيالات وتهريب اسلحة.

الاردن بحاجة الى سياسة حكيمة تبتعد عن التصعيد، وتضع موقعه الجغرافي الحساس في عين الاعتبار، خاصة حدوده المشتركة مع أكثر دولتين تشهدان توترات داخلية وضغوطاً خارجية، وهما العراق وسورية.

برنامج الاحتلال مقابل الغذاء

د. عبدالوهاب الافندي

(1)

يبدو أن الولايات المتحدة وحلفاءها الغربيين لم يتعظوا من تجربة حصار العراق كما يبدو من الإصرار على تكرار التجربة في فلسطين. معظم الحنق والغضب المتفجر ضد الولايات المتحدة سببه في الأساس التدخل الغربي المكثف في الخليج وضد العراق، خاصة الحصار الوحشي الذي حول واحدة من أغنى الدول العربية إلى معسكر اعتقال وتجويع كبير.

(2)

صحيح أن قضية فلسطين كانت ولا تزال أم القضايا بالنسبة للعرب والمسلمين. وإلى حد ما فإن التوجس في النيات المستبطنة من الوجود الأمريكي في الخليج كان مرده إلى موقف أمريكا المعروف من تلك القضية. ولكن الحضور الأمريكي في منطقة الخليج بالقرب من الحرمين الشريفين، والإشراف المباشر على حصار العراق، حول الدور الأمريكي من دور مستتر يقتصر على دعم التجبر الإسرائيلي إلى دور مباشر يمارس القمع بالأصالة وليس بالوكالة. وقد كسر هذا الوجود وهذا الدور كل المحرمات وقلب كل المعادلات.

(3)

الرأي العام العربي كان قد أخذ يتعايش مع المعاناة الفلسطينية، ويتغافل عنها ما لم تتفجر الأحداث لتذكر بأمرها، كما حدث في الانتفاضتين أو حرب لبنان. وحتى في هذه الحالة سرعان ما تصبح مشاهد القتل اليومي معتادة لا تفرض على العربي سوى تغيير محطة التلفزة حتى لا تكدر المشاهد عليه التمتع بوجبة العشاء. أما ما يعانيه الملايين يومياً في المخيمات أو على الحواجز فلم يعد يحرك ساكناً في مشاهد أو متابع. ولكن أزمة العراق استحوذت على الاهتمام لجدتها ولأنها صادفت بداية ثورة المعلومات وعصر الانترنيت وتكاثر القنوات الفضائية. ويبدو أن الغضب المخزون تجاه فلسطين تحول باتجاه العراق.

(4)

لكل هذا فإنها تعتبر حماقة ما بعدها حماقة الاتجاه الحالي لـ«نقل العراق إلى فلسطين» عبر ممارسة تقنيات الحصار التي تمت ممارستها في العراق في فلسطين، فواحدة منهما كانت تكفي لتفجير نووي، فما بالك بجمعهما! وما تفتقت عنه قريحة ما يسمى بالرباعية عن برنامج «الاحتلال مقابل الغذاء»، وتحويل الفلسطينيين إلى متسولين في وطنهم الذي تحولوا من قبل فيه إلى لاجئين تنبئ بأن القوم الذين صنعوا المشكلة الفلسطينية وظلوا يوقدون نارها لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً.

(5)

إذا كانت الحكومة الفلسطينية الجديدة (وهي تسمية على غير مسمى لأنها ليست بحكومة وهي أقرب لنقابة ضحايا الاحتلال) ستأتي بجديد فيجب أن تعيد القضية إلى جوهرها، وتقول للرباعية وغيرها: لا نريد صدقاتكم ولا احتلالكم. إن إدارة الشؤون المعيشية للفلسطينيين وجمع النفايات وغير ذلك هو مسؤولية الاحتلال وليس ضحاياه، وما تقوم به الحكومة من جمع للتبرعات هو في حقيقة الأمر دعم لاقتصاد إسرائيل التي كان يجب عليها دفع رواتب الموظفين، وهي على كل حال المستفيد الأول من هذه الأموال التي ستصرف لشراء بضائع إسرائيلية. فلتعلن «الحكومة» الوهمية الإضراب عن القيام بواجبات الاحتلال نيابة عنه، فذلك أضعف الإيمان.

دومينو التفاح الفاسد في عوالم ما بعد الحرب الباردة

صبحي حديدي *

■ دون ان يرفّ له جفن، أي ـ في صياغة اخرى خارج المجاز ـ دون ان يكترث بسوق المحاجات الديماغوجية وحشد التوريات الساخرة الاشدّ ديماغوجية، ينبّهنا المعلّق الامريكي الشهير توماس فريدمان إلى امر جلل بالغ الخطورة، كنّا عنه غافلين: ان عالم ما بعد الحرب الباردة ليس احادي القطب (حيث امريكا هي القوّة الكونية الاعظم والأوحد)، بل متعدّد الاقطاب (حيث ثمة قوى عظمى عديدة مثل فنزويلا هوغو شافيز تحديداً، سلاحها الجبّار في مواجهة امريكا هو حفر المزيد من آبار النفط، ليس اكثر)؛ وان النفوذ الامريكي في السياسة الدولية لا يتراخى وينحسر فحسب، بل باتت واشنطن عاجزة حتى عن علاج صغرى أزمات الكون وادناها شاناً!

والحال ان هذا الخطاب مستلّ، في تسعة اعشار مفرداته، من قلب قواميس الحرب الباردة إياها التي يوحي فريدمان انها طُويت وانقضت وانقرضت، بل لعلها تبدو اكثر ابتذالاً لأنها لا تعيّن الملموس بقدر ما تتلمس المطلق المجرّد المتخيل. وكانت ماري كالدور، الباحثة البريطانية المرموقة المختصة بالعلاقات الدولية وسياسات التسلّح، قد اطلقت على الحرب الباردة صفة بديعة بالفعل، ودقيقة تماماً في الآن ذاته: حرب المخيّلة! ذلك لأن فريقي هذه الحرب، التي ظلّت إفتراضية بالطبع، لم يكونا بصدد التحضير لمواجهة عسكرية فعلية تردع الطرف الخصم، واكتفيا بترويج ـ واحياناً ممارسة! ـ هذه الحرب في نطاق المخيلة، وعن طريق تضخيم الإحساس بأنها استمرار للحرب العالمية الثانية التي لم تنته بعد، حتى إذا كانت قد وضعت اوزارها.

وحين يصغي المرء إلى نائب الرئيس الامريكي، ديك شيني، وهو يهجو الغاز الروسي، وكأن هذا الغاز جيش جرار وقوّة إمبريالية تسعى إلى قهر الجمهوريات السوفييتية السابقة، وسائر بلدان اوروبا الشرقية، او إعادة احتلالها ربما؛ او حين يصغي المرء إلى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين وهو يهجو الولايات المتحدة بدوره، بل يصفها بـ«الرفيق الذئب الذي يعرف مَن يفترس، ويزدرد فريسته دون ان يصغي إلى احد»؛ فإن المرء لا يلام إذا تمتم وهمهم وتساءل: هل هذه فصول جديدة من الحرب الباردة؟ هل نستعيد حروب المخيلة من جديد؟ وهل هذا استئناف لأواخر خطابات التصعيد بين طرفي الحرب الباردة السالفة، ام ذرّ للرماد في العيون؟

والحال ان العالم، عند «الكبار» بصفة خاصة، يبدو وكأنه لا يتغير إلا على مبدأ ملء الدنان العتيقة بنبيذ جديد، او العكس، بحيث ينقلب الجديد إلى إعادة إنتاج للقديم، ويصبح التغيير دائرة مفرغة واسعة غائمة. الامر الذي يمنح المرء ذاته، المصغي إلى اهجيات شيني وبوتين على حدّ سواء، الحقّ في استئناف قديم النظرية ـ قبل راهنها، وربما دون حاجة إلى الراهن! ـ حول الأكوان والعوالم والعباد والأمم والدول التي تكتنف هذا الإحياء الجديد لتلك الخطابات العتيقة. بين ذلك القديم، مثلاً، ثمة نظرية «التفاحات الفاسدة» التي طرحها، قبل نحو عقد، المؤرخ الامريكي الشهير بول كنيدي، المعروف ببصيرة ثاقبة في شؤون صعود وانحطاط القوى العظمى. وكان الرجل، ضمن مقالة شهيرة نشرها في فصلية Foreign Affairs الامريكية ثمّ طوّرها بعدئذ، قد اعتبر ان المكسيك والبرازيل والجزائر ومصر وجنوب افريقيا وتركيا والهند وباكستان واندونيسيا هي الدول «التفاحات الفاسدة» التي ستلحق الأذى بصناديق الإستراتيجيات الكبرى المرسومة للقرن القادم. او هي قطع الدومينو التي قد تودي بكامل شروط اللعبة، كما كان سيقول رجال من نوع دوايت ايزنهاور او دين اشيسن او هنري كيسنجر او زبغنيو بريجنسكي؛ او «الدول المحورية» Pivotal States كما جادل الجغرافي والإستراتيجي البريطاني هالفورد ماكيندر في مطلع القرن؛ او ما يحلو للمرء ان يسمّيه إذْ يقيم الرابطة بين اندثار القوى العظمى وعجز الإستراتيجيات الكبرى عن احتواء القطع الصغيرة في لعبة الدومينو إياها.

وليس الامر ان كنيدي يناهض نظريات الدومينو القديمة في غمرة مقترحاته الجديدة، بل قد يكون العكس هو الصحيح. ذلك لان التركيز على قطع الدومينو الجديدة، وبينها بعض كثير من القطع القديمة للتذكير، يمكن ان يخدم الإستراتيجيات الراهنة والمستقبلية للولايات المتحدة اكثر مما كانت عليه الحال ايام نظام القطبين والإستقطابين، خصوصاً وان احداً لا يبدو اليوم ملزَماً بإثقال الخزينة الامريكية لخدمة مشاريع مارشال من اي نوع، او ملء الفراغ على قاعدة «الموت ولا الحمر» Better Dead than Red الفارق بين الامس واليوم هو ان التهديد الشيوعي لم يعد الشبح المرابط على الاسوار، المتاهب للإنقضاض والتخريب إذا ما غفلت عين الحارس الامريكي الساهر على الحرية والديمقراطية والأمن. التهديد، هذه المرّة، يأتي من الداخل، والداخل وحده تقريباً. يأتي ولا يتوقف عند حدود البلد المحوري، بل يتعداه إلى اكثر من جوار، بالضرورة الناجمة عن طبيعة انبثاقه من عوامل مكوّنة ليست داخلية على الدوام: الزيادات الهائلة في اعداد السكان، موجات الهجرة، التدهور البيئي، الصراعات الاثنية، انعدام الوزن الاقتصادي... وما إلى ذلك من ظاهرات تعجز السياسات السابقة عن معالجتها او حتى تطويقها وتضييق نطاق انتشارها.

ويسرد بول كنيدي المعايير والخصائص التي تسمح بتحديد الدولة المحورية، فيشير إلى عدد السكان، والموقع الجغرافي الهامّ، والإمكانات الاقتصادية، واحتمال ولادة الاسواق الكبرى، والحجم الفيزيائي... هذه جميعها عوامل كلاسيكية تساعد في تعريف الدولة المحورية، ولكن المعيار الأهمّ هو قدرة تلك الدولة على التأثير في الإستقرار الإقليمي والدولي، بحيث يكون انهيارها بمثابة تقويض لعدد كبير من المعادلات السياسية والإقتصادية والامنية والإثنية والثقافية. وضمن هذا التعريف سارع كنيدي إلى التحذير من خطأين: اعتبار اللائحة مقتصرة على هذه الدول وحدها (إذ قد تتبدّل، او بالاحرى ينبغي ان تتبدّل، اللائحة)؛ وانقلاب نظرية التفاحات الفاسدة إلى «مزمور» مقدّس شبيه بنظرية الدومينو (لان منظورات هذه الدول المحورية يمكن ان تتقاطع وتتباين كثيراً، في واحد او اكثر من المعايير المشتركة).

وفي مناقشة حالة مصر يشير كنيدي إلى الإعتبارات التقليدية: الموقع الجغرافي والتاريخي، العلاقة مع القوى الكبرى، القرب من منابع النفط، التورّط النشط في العملية السلمية العربية ـ الاسرائيلية، الدور الحيوي في ضمان الإستقرار الإقليمي في الشرق الاوسط وشمال افريقيا، نظام الرئيس المصري حسني مبارك، وما إلى ذلك. في المقابل، يعدّد كنيدي انهيار مصر (اي انهيار النظام الحالي) ضربة اكثر إيذاء للمصالح الامريكية من سقوط الشاه وقيام الثورة الإيرانية. وحجم الاذى يمكن ان يشمل تعطيل عملية السلام او قطعها إلى اجل طويل، وعرقلة الخطط الامريكية الهادفة إلى احتواء القوى الإقليمية الفاعلة وإلى حصار «الانظمة الاصولية»، وإجبار السعودية على إعادة النظر في تحالفاتها شبه المطلقة مع الغرب، وانتفاء اية إمكانية لتكرار عملية نوعية على غرار «عاصفة الصحراء»، فضلاً عن التأثيرات المباشرة على سياسات إنتاج وتسعير وضخّ النفط من المنطقة.

الجزائر تشغل موقعاً جغرافياً بالغ الحساسية، ومستقبلها السياسي يحظى باهمية فائقة في حسابات دول اوروبية حليفة مثل فرنسا وإسبانيا. واستمرار الحرب الاهلية في هذا البلد، وما يمكن ان يسفر عنه من احتمال سقوط النظام القائم، يهدد امن حوض المتوسط بأسره، وامن الاسواق الدولية للنفط والغاز، وتكوين قاعدة لاحتضان التيارات الاصولية العالمية، وتطوير شروط المجابهة بين الاصولية والعلمانية من جهة اولى، وإعادة صياغة العلاقة بين التيارات المعتدلة والراديكالية ضمن الحركة الإسلامية الواحدة من جهة ثانية، فضلاً عن امتداد الفيروس إلى الجوار ميمنة وميسرة (مصر، تونس، ليبيا، المغرب)، وفي العمق الافريقي المسلم. كذلك فإنّ وصول نظام راديكالي معاد للغرب إلى السلطة سوف يعني تهديد حاجة فرنسا وإسبانيا وإيطاليا إلى موارد الجزائر من النفط والغاز، وتهديد الإستثمارات الاوروبية الواسعة، الامر الذي سيلحق الإضطراب بالاسواق العالمية، ويهدد المصالح الامريكية. كذلك سوف تضطر الطبقات الوسطى العلمانية إلى الهجرة الكثيفة، وستضطرب من جديد سياسات الهجرة في دول الاتحاد الاوروبي.

ورغم ان تركيا لا تعاني من الوضع القلق لكلّ من مصر والجزائر، إلا انها تتفوّق عليهما في اهمية الموقع الإستراتيجي، وهي قادرة على التأثير في عدد كبير من الدول، على مبعدة آلاف الاميال من البوسفور، بوصفها نقطة تقاطع بين الغرب والشرق، الشمال والجنوب، والمسيحية والاسلام. ولكنّ تركيا تعاني من صعوبات مزمنة تقلق الكبار مثلما تصبّ الزيت على حرائق دول محورية غير بعيدة. ثمة ضغوطات سكانية وبيئية، وتحديات إثنية حادّة، وصحوة إسلامية اصولية، وتنافس مع اليونان، وتوتر (سابق، ولكنه يظلّ كامناً قائما) مع سورية والعراق حول اقتسام مياه الفرات، وطموح إلى لعب الورقة التركية العتيقة في آسيا الوسطى. ذلك يقتضي الحفاظ على تركيا مزدهرة وعلمانية وديمقراطية، والحرص الشديد على عدم توليد تركيا منقسمة على نفسها بفعل حروب اهلية دينية وإثنية، او تركيا طامحة إلى استعادة الماضي الإمبراطوري، او تركيا لا تنضوي جيداً في التصميم الإستراتيجي المعتمد من قبل الولايات المتحدة وحلف الاطلسي.

وتحليل كنيدي للدول المحورية الاخرى لا يخرج عن هذا المنهج العام، وهو في النهاية يوصي راسمي السياسات الامريكية بالوقوف في موقع وسيط بين مجازفتين خاطئتين: بسط طبقة رقيقة من النفوذ الامريكي على سطح واسع من الكرة الارضية، او الإنعزال وللمة النفوذ والتمترس خلف اسوار المحيط. هذا الخيار الوسيط يخدم مصالح الولايات المتحدة استراتيجياً لأنه يحقق اكبر قدر ممكن من ضبط الأمن الدولي عبر نقاط محورية ممركزة، ويخدمها سياسياً لانه يوفّر حجة دامغة ضدّ ذريعة بعثرة الموارد الامريكية والتي يرفعها دعاة الإنعزال. ويستذكر كنيدي مثال امتناع الولايات المتحدة عن التورّط في ازمة رواندا صيف عام 1994، ويرى ان مَنْ انتقدوا إدارة الرئيس الامريكي السابق كلينتون تناسوا ان عدم استقرار رواندا لا يلحق اي اذى بالمصالح الامريكية.

وبالمقارنة مع القاعدة السابقة التي تقول «الموت ولا الحمر»، بدا كنيدي اشبه بمَنْ يقترح قاعدة جديدة مثلى حول الاشكال القادمة لإدارة الكون وضمان عدم تعفّن صناديق التفاح الاستراتيجي في عقود القرن المقبل: «ان تكون حكيماً خير من ان تكون واسعاً» Better Wise than Wide! ولهذا فإنّ إحدى معضلات روسيا، الطرف الثاني في الحرب الباردة السالفة، انها اليوم تتقلّص دون ان تتخلى عن احلام القياصرة في التوسّع بقصد الالتفاف على «الرفيق الذئب»؛ وامّا إحدى معضلة الولايات المتحدة، الطرف الاولّ، فإنها تتوسع شرقاً صوب ديار الإسلام بعد ان اختلقت اصوليته وصنّعته عدواً بديلاً للعدوّ الاحمر، تارة بغرض عقائدي يلهج به المحافظون الجدد ويستأنف اكاذيب نشر الحرّية، وطوراً بغرض ديماغوجي يسعى إلى توسيع جغرافية اقتصاد السوق كما يردّد الرهط ذاته، ودائماً وابداً لان حفر المزيد من آبار النفط هنا وهناك في عالم ما بعد الحرب الباردة ينبغي ان يخدم امريكا وحلفاءها اولاً وثانياً وعاشراً، قبل ان تستفيد منه الامم/ قطع الدومينو المحفور عندها.

ولا بدّ، كذلك، ان لا يزداد عدد التفاحات الفاسدة!

* كاتب وباحث سوري يقيم في باريس

افرجوا عن مصر: التغيير الديمقراطي او الكارثة

خالد الشامي *

■ لا يمكن ان تدل المشاهد الهمجية والمؤسفة لقمع المظاهرات السلمية في مصر الا على ان النظام بدأ يفقد توازنه، بعد ان فقد عقله.

ولا يمكن ان تدل هذه الحشود الأمنية غير المسبوقة في القاهرة، الا على ان مصر اصبحت اسيرة في ايدي نظام بوليسي قائم على القهر والتزوير.

لقد بدت القاهرة مثل ساحة حرب امس، ولكنها ليست حربا ضد عدو مصر الاستراتيجي الوحيد الذي يواصل تهديد أمنها القومي مباشرة، سواء بالقصف المتواصل على قطاع غزة، او تجويع الشعب الفلسطيني ودفعه نحو الانفجار، وليست حربا ضد الارهابيين الذين يدمرون حياة المصريين ومصدر رزقهم، ولكنها حرب على مواطنين شرفاء خرجوا لمناصرة قضاة شرفاء «جريمتهم» انهم رفضوا السكوت عن باطل النظام وانتخاباته المزورة.

لم تعش مصر هذه الاجواء المحتقنة منذ اواخر عهد الرئيس الراحل انور السادات، عندما كانت الاعتقالات والقمع ضد الناس «عمياني» حسب التعبير المصري.

لقد فضح هذا التصعيد الأمني الأخرق ضد المعارضة النوايا الحقيقية لنظام اصبح يرى في قانون الطوارئ وما يكفله من غطاء للتنكيل بالمعارضة الوطنية السلمية شرطا لبقائه هو وأمنه هو، وليس أمن الوطن والمواطنين.

ان مصر اليوم على مفترق طريق، فإما التغيير السلمي الديمقراطي وهو ما نريده، وما يليق بها وبحضارتها، واما كارثة لا يعلم إلا الله مداها وعواقبها ـ لا قدر الله ـ وهذا ما لا نريده ولا يريده أي محب لمصر وشعبها الذي خاض كل حروب العروبة والاسلام على مدى التاريخ.

الان النظام الذي يراهن على القمع وحده للخروج من مأزقه، هو الذي يدفع البلاد بأكملها الى حافة الهاوية باصراره على التشبث بالسلطة باي ثمن متبعا سياسة انتحارية عنوانها «انا ومن بعدي الطوفان».

لقد سقط النظام بالفعل في اعين المصريين، وهم يرون الاعتداءات الوحشية على الشباب وهتك عرض الفتيات من اعضاء «كفاية» و«الغد» و«الوفد» و«الاخوان» وكافة القوى السياسية التي وحدها النظام بدون قصد، وجمعتها «انتفاضة القضاة» بعد ان فرقتها الانتخابات وحيل النظام في العام الماضي.

ودون ان يدري، جعل النظام «سيناريو التوريث» الذي يعتقد على نطاق واسع انه الهدف الاخير لمنظومة تمديد الطوارئ والتنصل من الوعود الاصلاحية، اقرب الى المستحيل.

فالتوريث حصل بالفعل، وهذه هي حال البلاد تحت سلطة «الوريث» الراغب لكن غير القادر على تحديث اساليب النظام التي عفا عليها الزمن، وتجاوزتها التطورات الاقليمية والدولية.

وبدلا من الافراج عن اكثر من مئة معارض اعتقلوا لتعاطفهم مع القضاة ثم دبرت لهم تهمة «اهانة رئيس الجمهورية»، اقدم النظام على اعتقال المئات في يوم الخميس الدامي.

ان افراد الشرطة الذين هتكوا عرض الصحافية عبير العسكري وضربوا الصحافيين مراسلي وكالة «رويترز» وقناة «الجزيرة» والعشرات من المواطنين المصريين هم الذين اهانوا مصر وتاريخها وحضارتها ونظامها السياسي ايضا، وهم الذين يستحقون المحاكمة، وليس القاضيين الرمزين محمود مكي وهشام البسطاويسي.

ان الرئيس مبارك مطالب بالعودة لانقاذ البلاد من هذه الاوضاع المتردية، وقطع جولته الاوروبية التي يصعب فيهم مغزاها خاصة انه زار ايطاليا بينما تشهد تشكيل حكومة جديدة، ما يعني انها في حال شلل سياسي، كما ان زيارة المانيا لم تسفر عن أي نتيجة محددة، الا اذا كان وجوده في الخارج مقصودا ليتنصل من مسؤولية هذه المجزرة للديمقراطية.

لقد اظهرت صور القمع الذي لم يستثن حتى القضاة، ان النظام قرر ان يوغل في العناد متجاهلا ان هناك دائما حدودا حتى للتصعيد الأمني، أهمها في الداخل، حيث انه استعدى كافة فئات الشعب من قضاة وصحافيين ومحامين واطباء وفنانين وناشطين سياسيين ولم يبق له انصار الا بين رجال الاعمال من المتخصصين في اغراق العبارات وغيرها من الكوارث التي تنهمر كالامطار في مصر.

كما ان هناك حدود دولية ايضا. فالانظمة التي تقمع المتظاهرين او تهتك اعراضهم او تحبسهم بدون مسوغ قانوني، اصبح يمكن محاسبتها حاليا امام المحكمة الجنائية الدولية ((ICC بتهمة ارتكاب «جرائم ضد الانسانية»، وهذه لا تسقط بالتقادم.

فالعالم، بالمناسبة، ايها الالهة قد تغير حقا، ولمن لا يصدق ان يقرأ انباء الجنرالات الاسرائيليين العاجزين عن زيارة اوروبا خشية ملاحقتهم بتهم ارتكاب جرائم ضد الانسانية.

لقد حان وقت الافراج عن مصر، كما طالبت لافتة رفعها احد المتظاهرين المشاركين في «انتفاضة القضاة»، واصبحت رمزا جامعا لمطالب الشعب والقوى السياسية على اختلافها في مصر.

لقد اثبتت القاهرة امس انها ما زالت قلب العرب النابض رغم الجاثمين على صدرها، اذ انها المدينة العربية الوحيدة التي تتنفض لاقتناص الديمقراطية من انياب حكم شمولي اخرج مصر ومعها العرب من التاريخ.

واثبت شعب مصر انه اكثر ذكاء من الذين حاولوا «استغفاله» بتعديل دستوري لن يسمح إلا لمن يختاره الحزب الحاكم «اللاديمقراطي» بتولي الرئاسة الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

واثبت قضاة مصر انهم كما كانوا دائما مصدر فخر لشعبهم، ونقطة ضوء مبهرة وسط هذا الليل العربي المظلم.

اما اذا بقي لدى النظام أي قدر من «الحكمة» التي يتباهى بها، ويبدو انه اسرف في استخدامها في سياساته الاقليمية، فلعلها ترشده الى عدم استفزاز هذا الشعب الصابر، الذي قد يسكت طويلا، ولكنه اذا تكلم اهتزت الارض وسقطت العروش.

* كاتب وصحافي من اسرة «القدس العربي»

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 Fax: 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364